العائد المنتظر

تترك فاطمة تلك السيدة الأربعينية ربة المنزل مقر سيادتها الأعظم غرفة المطبخ في تمام الواحدة مساء؛ لتؤدي فريضة صلاة الظهر على أمل الانتهاء سريعًا من إعداد وليمة الطعام على أكمل وجه، حيث هذا اليوم الخميس يختلف عن مثيله اختلافًا كاملًا؛ فاليوم هو عودة ابنيها الغائبين، فابنها الأكبر محمود يؤدي واجبه الوطني العسكري في إحدى المدن الحدودية بمحافظة شمال سيناء، حيث من المتوقع أن يكون قد بدأ في خط سير عودته ليصل منزل العائلة بالقاهرة في تمام الخامسة مساء؛ ليقضي أسبوعًا في كنف عائلته بعد شهر من الغياب، وأيضًا من المقرر وصول ابنها هيثم على متن القطار الوارد من الإسكندرية محل دراسته في

كلية الصيدلة، حيث يصل القطار مدينة القاهرة في تمام الرابعة والنصف عصرًا، وتنتظر أيضًا الأم ابنتها الوحيدة بسمة العائدة من دراستها في جامعة القاهرة لمعاونتها في أعمال الطبخ والمنزل، ليعم المساء وتجتمع الأسرة بعد اكتمال سلسالها بعودة الأب والزوج عبد الحميد القرنفلي من عمله حيث يعمل مدير إدارة بأحد البنوك التجارية.

تبدأ فاطمة في ممارسة شعائرها الدينية أعلى سجادة الصلاة في غرفة نومها، خاشعة لربها الودود ليبدأ هاتف الخطوط الأرضية في الصياح ليسبب لها الإزعاج دون أن يفسد صلاتها، وعند انتهائها من أداء فريضتها، ومع استمرار نهيق الهاتف كانت لهفة فاطمة متوهجة لمعرفة من أزعجها وماذا يريد لتوبخه وتغلق الهاتف في وجهه.

- ألو، مين بيتكلم؟

- دا بيت محمود عبد الحميد القرنفلي؟

- أيوة، انت مين؟

- أنا المقدم حسين إبراهيم.

يتملك الهدوء الحذر في قلب فاطمة.

- أهلًا يا افندم، أهلًا بحضرتك، أؤمرني.

- حضرتك مين؟

- أنا فاطمة محمد السيد والدة محمود.

- شدي حيلك يا أم محمود، البقية في حياتك، ابنك البطل محمود استشهد بكل بسالة من ساعتين وهو بيشتبك بجماعة إرهابية، وضحى بنفسه علشان يمنع كارثة كبيرة كانت ممكن تحصل لولا لطف الله وتضحية محمود ومعاه أربعة من زمايله، وأن شاء الله نحتسبهم جميعًا شهداء الوطن المجيد.

تسقط سماعة الهاتف من يد فاطمة فتتصلب شاردة للحظات، ثم تخور قواها فتسقط جالسة على أرض الغرفة صامتة واعية لمجريات الأحداث، تسيل الدموع من عينيها، ينبض قلبها ضعف عدد دقاته المعتادة، تشعر بنشاط ثائر في رأسها في شكل ألم حاد، ينبض وجهها بحرارة فلا تدري ماذا تقول وماذا تفعل، فلم تتمكن إلا من قول كلمة يا رب مهتزة البدن صارخة: حبيبي يا محمود، حبيبي يا ابني، ليشتد صراخها ليجتمع حولها أهلها وبعض من جيرانها محاولين التخفيف من هول مصابها الجلل.

* * *

عند أول الليل كان معاد وصول طائرة نقل جثامين الشهداء في أحد المطارات الحربية في القاهرة، حيث استقبلت فاطمة ولدها محمود للمرة الأخيرة لتودعه إلى مثواه الأخير، تسير في جنازته العسكرية بثبات وتماسك، وإن كان لم ينقطع بكاؤها لحظة من الزمن، تصيح من وقت لآخر: ربنا يرحمك يا شهيد، يا حبيبي يا محمود، كله يهون علشان بلدنا مصر، وأثناء لحظات دخول محمود لمثواه الأخير نهنهت فاطمة.

– محمود يا حبيبي، انت سامعني؟ أنا أمك يا ضنايا، مع السلامة يا نور عيني، لو حاسس بيَّ ما تخافش من حاجة، انت رايح أحلى مكان ربنا خلقه، وإن شاء الله ربنا يتقبلك شهيد وتبقى أحسن الفايزين، ابقى تعالالي في المنام طمني عليك كل يوم يا حبيبي.

– ما تزعليش عليه يا فاطمة يا اختي، الليلة دي هتكون أجمل لياليه، محمود هيبقى عريس الجنة، افرحي يا ام الشهيد واحمدي ربنا على النعمة اللي رزقنا بيها، ابنك بطل في الدنيا وهيدخلنا كلنا معاه الجنة في الآخرة.

– الحمد والشكر لله، أنا مش حزينة علشان استشهد؛ أنا حزينة علشان مشي وسابني، هيوحشني ومش هاشوفه تاني.

عند الحادية عشر مساء انتهت مراسم الدفن وتقبل العزاء، فيطلب المقدم حسين إبراهيم الانفراد بعبدالحميد القرنفلي والد محمود بعض الوقت.

- تحت أمرك يا سيادة المقدم.

- البقاء لله مرة تانية، ابنك كان بطل عظيم قدم نفسه فداء لوطنه.

- الدوام لله وحده، شكرًا يا افندم على حضورك وتعبك معانا طول اليوم.

- دا الكارت بتاعي، إن شاء الله بعد أيام العزاء يا ريت تتواصل معايا علشان نخلص إجراءات معاش من القوات المسلحة ليك وللست أم محمود، وكمان عاوز أبشرك إن شاء الله السنة دي وزارة الدفاع هتقدم لك هدية انت والمدام رحلة حج فخمة شاملة جميع التكاليف.

- كتر خيركم يا افندم ما لهوش لزوم تعبكم والتكاليف دي كلها.

- يا أستاذ عبد الحميد مصر ما بتنساش ولادها اللي ضحوا بأرواحهم علشانها.

❋ ❋ ❋